الفَصْلُ الثَّانِي

إشكاليةُ اللُّغَـــةِ في النَّشْـــأةِ والأصـــلِ

الاتجـاهــاتُ فــي نشــأةِ اللّغةِ

أَصْـبَحَتْ مُشْـكِلَةُ نَشْـأَةِ الُّلغَـةِ مِـن الُمعضـلاتِ الفلسـفيةِ الَّتـي حفـلَ تأريخُهـا بالُمجاذباتِ الحادَّةِ، دونَ أنْ تَنْتَهِيَ إلىٰ رأيٍ قاطعٍ، إذْ أخذَ البَحْثُ في نَشْأَةِ الُّلغَةِ طَابِعَاً ميتافيزيقياً، وهذا ما جعلَ علماءَ الُّلغَةِ يُحجمونَ عن البحثِ في هذهِ الإشكاليةِ، لعدمِ إمكانيةِ الوصولِ إلىٰ القولِ الفصلِ، ممّـا حَـدا بالجمعيـةِ الفرنسـيةِ إلىٰ أنْ تمنـعَ إلقـاءَ المحاضراتِ من هذا النوعِ بموجبِ قانونٍ يُلزمُ الباحثينَ بهذا القيدِ[1] فـالقولُ بأوليـةِ الُّلغَةِ يحتاجُ إلىٰ شيءٍ مـن التَّأمـلِ، كـونَ الأمـرِ فيهـا خفـيٌّ لا يعلمُـه إلاّ اللهُ وحـدَه سبحانَه، وهذا ما جعلَ عُلماءَ الُّلغَـةِ القُـدَمَاءَ والُمحـدثينَ مُترددِيـنَ في قَبُـولِ هـذه النَّظريَّةِ أو تلكَ، وعلىٰ الرغمِ من أنَّنا لا يُمكنُنا أَنْ نُدْرِكَ كينونةَ الُّلغَةِ، وَكيفَ كانـتْ في أوليتِها، وربّما يكونُ مِنَ العَبَثِ إثباتُ كلَّ شيءٍ، ولكـنَّ العَمَـلَ وفـقَ الخصـائصِ والَمعالِمِ الواضحاتِ يمكنُ إثباتُ ما يكونُ قابلاً للإثبـاتِ، لـذا يُمكنُنـا الوصـولُ إلىٰ الُّلغَةِ من خلالِ ذاكـرةِ الُّلغَـةِ نفسِـها حسـبَ ارتباطِهـا بالأشـياءِ، لا سـيَّما القضـايا

---

١. يُنظر محاضرات في اللهجات وأسلوب دراستها، أنيس فريحة:١٢-١٣، معهد الدراسات العربية، القاهرة، ١٩٥٥م.

العامةُ اليقينيةُ الَّتي ما تزالُ محفورةً في الذهنِ البشريِّ، وفقَ الأنموذجِ اللغويِّ الذي لا يمكنُ تجاهلُه ألا وهو النصُّ القرآنيُّ، فضلاً عن ذلكَ ندركُ بأنَّ الُّلغَةَ من الأشياءِ الحيةِ وهنالكَ من يبرِّرُ وجودَها أو بالأحرىٰ ارتباطَها بما هو كائنٌ متحركٌ يعتمدُ خصائصَ ذهنيةً قائمةً في الذهنِ، مستقرةً في الأشياءِ الحيةِ نفسِها، ومع ذلكَ أعتقدُ أنَّ من الممكنِ أنْ نتجاوزَ تلكَ النظرياتِ ونسلكَ ما نسمّيه اليقينَ في فهمِ الُّلغَةِ، ما دامَتِ العلاماتُ والإشاراتُ تذهبُ بنا إلىٰ أبعدَ مما ذهبَ إليهِ القدماءُ، وسيكونُ حالُنا يقيناً بأنَّ الُّلغَةَ وجدتْ قبلَ خلقِ الإنسانِ، ومن العبثِ أنْ نشكَّ بهذهِ الحقيقةِ ما دُمْنا مؤمنينَ باللهِ تعالىٰ، وما دمنا لا نضعُ اليدَ علىٰ قولٍ صدرَ عن القدماءِ في حقيقةِ هذا الأمرِ، لأنَّ القولَ في أوليةِ الُّلغَةِ وما فيهِ من نقصٍ يعرِّضُ المتلقي إلىٰ الاضطرابِ في الذهنِ، لذلكَ أتجهُنا إلىٰ هذهِ الوجهةِ الحسنةِ لفهمِ حقيقةِ وطبيعةِ الخلقِ لهذهِ الُّلغَةِ.

أصلُ الُّلغَةِ في مباحثِ القدماءِ والمحدثينَ

قالوا بأنَّها وحيٌ من عندِ اللهِ تعالىٰ، أو أنَّ أصلَها لابُدَّ فيه من المواضعةِ، أو أنّها وجدتْ بفعلِ الأصواتِ والمسموعاتِ، ولكلٍّ نظريةٍ من تلكَ مذهبٌ واعتلالٌ.

قيلَ إنَّ أكثرَ أهلِ النظرِ يرون أنَّ أصلَ الُّلغَةِ تواضُعٌ واصطلاحٌ، لا وحيٌ وتوقيفٌ[1]، وأنَّ أصحابَ هذهِ النَّظريَّةِ يرون أنَّ مستعملَ الُّلغَةِ هو مصدرُها، وهذا يتَّضِحُ في ما حدَّدَهُ أفلاطونُ في أنَّ الاسمَ الَّذي نطلقُه علىٰ الشيءِ هو الاسمُ الصحيحُ، فإذا استعضْنا عنه أتىٰ الثَّاني صحيحاً كالأولِ نُغيِّرُ أسماءَ عبيدِنا بدونِ أنْ يكونَ الاسمُ الجديدُ أقلَّ حظاً في الدقةِ من السابقِ، فالتسميةُ وليدةُ التكرارِ والعادةِ

١. يُنظر الخصائص لابن جني:١-٩٤

عند الذينَ زاولوا فعلَها[1] وهذا يتَّسِقُ مع قولِ القائلِ «وذلكَ كأنْ يجتمعَ حكيمانِ أو ثلاثةٌ فصاعداً، فيحتاجوا إلى الإبانةِ عن الأشياءِ والمعلوماتِ، فيضعوا لكلِّ واحدٍ منها سمةً ولفظاً، إذا ذُكِرَ عُرِفَ به ما مسمّاه، ليمتازَ به من غيرِه، وليغنىٰ بذكرِه عن إحضارِه إلى مرآةِ العينِ، فيكونَ ذلكَ أقربَ وأخفَّ وأسهلَ من تكلُّفِ إحضارِه لبلوغِ الغرضِ في إبانةِ حالِه»[2].

وحاول ابنُ جنّيٍّ تقريبَ هذهِ النَّظريَّةِ من ذهنِ المتلقي علَّهُ يقنعُ بها، بذكرِه لجملةٍ من اختراعاتِ الصنّاعِ لآلات صنائعِهم من الأسماءِ «النجارةِ، و الصائغِ، والبناءِ» ودلّلَ علىٰ تواضعِها من قِبَلِ العامةِ بقولِه: «قالوا ولكنْ لابدَّ لأولِها من أنْ يكونَ متواضعاً بالمشاهدةِ والإيماءِ، قالوا والقديمُ سبحانَه لا يجوزُ أنْ يوصفَ بأنَّه يواضعُ أحداً من عبادِه علىٰ شيءٍ، إذْ قد ثبتَ أنَّ المواضعةَ لابدَّ معها من إيماءٍ وإشارةٍ بها منه، فبطلَ عندهم أنْ يصحَّ المواضعةُ علىٰ اللُّغَةِ منه، تقدستْ أسماؤُه، قالوا يجوزُ أنْ ينقلَ اللهُ اللُّغَةَ الَّتي قد وقعَ التواضعُ بين عبادِه عليها، بأنْ يقولَ: الذي كنتم تعبّرونَ عنه بكذا عبِّروا عنه بكذا والذي كنتم تسمّونه كذا ينبغي أنْ تسمّوه كذا جوازُ هذا منه سبحانَه كتجوزِه من عبادِه»[3]، وعلىٰ هذا تكونُ اللُّغَةُ من ابتكارِ البشرِ- عن طريقِ التواضعِ والتوافقِ والارتجالِ، وهذا ما ذهبتْ إليهِ المعتزلةُ لاسيَّما شيخُهم عبدُ السلامِ الجبائيُّ «ت٣٢١هـ»، إذْ ذهبَ إلى أنَّ اللغاتِ لا تدلُّ علىٰ مدلولاتِها العقليةِ، ولهذا المعنىٰ يجوزُ اختلافُها، ولو ثبتَ توقيفُها من جهةِ الله تعالىٰ ينبغي أنْ يخلقَ اللهُ العلمَ بالصيغةِ، ثمَّ يخلقَ لنا العلمَ بالمدلولِ، ثمَّ يخلقَ لنا العَلمَ بجعلِ الصيغةِ دليلاً علىٰ ذلكَ المدلولِ، ولو خلقَ لنا العلمَ بصفاتِه لجازَ أنْ يخلقَ لنا العلمَ بذاتِه، ولو خلقَ لنا العلمَ بذاتِه بطلَ التكليفُ وبطلتِ المحنةُ[4]، لذلكَ قيلَ إنَّ اللُّغَةَ وليدةُ اجتماعِ الناسِ لقيامِهم بعملٍ مشتركٍ، والأصواتُ الَّتي صدرتْ عنهم كانتْ نتيجةَ ذلكَ

١.يُنظر فلسفة اللغة، كمال يوسف الحاج، دار النهضة:١٨

٢. المصدر نفسه:١-٩٦

٣. المصدر نفسه:١-٩٧

٤. يُنظر المزهر في علوم اللغة وأنواعها للشيخ جلال الدين السيوطي:١-٢٠

العملِ، وهذا ما يتمثلُ باللُّغَةِ النَّفعيةِ عندَ العامةِ من البشرِ، لذلكَ عـدّةُ الأصـواتِ اللغويةِ على الرغمِ من تمايُزِها واختلافِها من حيثُ الأداءِ والوظيفـةِ اللغويـةِ البـؤرةُ الأساسيةُ لنشوءِ اللُّغَةِ.

ومن الباحثينَ المحدثينَ الذينَ قالوا بالمواضعةِ والاصطلاحِ «جون لـوك» وينقـلُ الأستاذُ كمال الحاج حجة جون في التواطؤِ مع من يمتلكُ الكفايـةَ اللغويـةَ والقـدرةَ على ابتكارِ الألفاظِ، يرى أنَّ الكلمةَ تدلُّ على معنى والمعنى لا يأتي من الشيءِ المـاديِّ «أي الواقعِ الخارجيِّ» فالكلمةُ الدالّةُ مع المجرَّدِ هـي الَّتـي تَعنـي، والـذي يَعنـي في الكلمةِ هو الفكرُ، فالفكرُ عانٍ «فاعلٌ»، والإنسانُ هو مصدرُ الفكرِ، وقد لـوحِظَ أنَّ هذهِ التواطؤيةَ ذاتَ قاعدةٍ، يَعني أنَّ وضعَ الكلماتِ يتطـورُ مـن الحـسِّ إلى المجـرَّدِ، ومن المنظورِ إلى اللامنظورِ، ومن الخاصِّ إلى العامِّ[1]. ومن المآخذِ على هذهِ النَّظريَّـةِ، هو أنَّ الكلامَ لو كانَ اصطلاحاً لَمَا جازَ أنْ يَصطلحَ عليه إلاّ قومٌ قد كمُلتْ أذهـانُهم وتدرَّبتْ عقولُهم وتمَّتْ علـومُهم، و وقَفُـوا عـلى الأشـياءِ كلِّهـا الموجـودةِ في العلـمِ وعرفُوا حدودَها واتفاقَها واختلافَها وطبائعَها[2] وقيلَ أيضاً إنَّ «الاصطلاحَ يقتضـي وقتاً لم يكنْ موجوداً قبلَهُ، لأنَّه من عملِ المُصطلِحينَ، وكلُّ عملٍ لابدَّ مـنْ أنْ يكـونَ لهُ أولٌ، فكيفَ كانَ حالُ المصطلحينَ على وضعِ اللُّغَةِ قبلَ اصطلاحِهم عليها؟ فهـذا من الممتنعِ المحالِ ضرورةً»[3]، وقيلَ في بطلانِ القولِ بالتواضعِ إنَّه لا يكـونُ ضرورةً إلاّ بكلامٍ متقدمٍ بينَ المتواضعِينَ على وضعِ اللُّغَةِ، أو بإشاراتٍ قد اتفقُوا على فهمِها، وهذا لا يكونُ إلاّ بكلامٍ ضرورةً، ومعرفةُ جوهرِ الأشـياءِ وطبائعِهـا الَّتـي يعبَـــرُّ عنها بالألفاظِ لا يكونُ إلاّ بكلامٍ وتفهيمٍ، فبطلَ الاصطلاحُ عـلى ابتـداءِ الكـلامِ[4]، وينقلُ الدكتورُ هادي نهر نصاً للدكتور محمد المبارك[5] في بيانِ ضعفِ مذهبِ القائلينَ

١.يُنظر فلسفة اللغة:٢٤-٢٥.

٢.يُنظر الإحكام في أصول الأحكام، لابن حزم، تح: أحمد شاكر، نشر: زكريا علي يوسف، مطبعة القاهرة:١-٢٨.

٣.المصدر نفسه:١-٢٨.

٤.يُنظر الإحكام في أصول الأحكام:١-٢٩.

٥.يُنظر: فقه اللغة وخصائص العربية:٦٦

بالمواضعةِ، قالَ «فلا يُعقَلُ أنْ يخلقَ خالقٌ شيئاً لا يملكُ عنه أيةَ فكرةٍ، ولكي توجدَ هذه الفكرةُ عن اللُّغةِ عند الإنسانِ يجبُ أنْ يكونَ مفكراً، أي أنْ يكونَ لاغياً ومعنىٰ هذا أنَّه لكي يخلقَ الإنسانُ اللُّغةَ يجبُ أنْ يكونَ مالكاً للغةِ، وبعبارةٍ أخرىٰ أنَّ وجودَ اللُّغةِ شرطٌ لخلقِ اللُّغةِ، أو أنَّ اللُّغةَ واجبُ وجودٍ لمنشأِ اللُّغةِ ذاتِها، ولما كانَ هذا مستحيلاً علىٰ الإنسانِ فقد وجبَ أنْ تكونَ اللُّغةُ هبةً من لدُنِ الله»[1]، وإلاّ كيفَ لنا أنْ نفسِّرَ قولَه تعالىٰ في قصةِ عيسىٰ «عليه السلام» ﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً﴾ مريم:٢٩، ٣٠.

أمّا القولُ بالتوقيفِ كونَها إلهاماً من الله تعالىٰ فمبنيٌّ علىٰ ما جاءَ من دليلٍ في بعضِ الحواراتِ القديمةِ الَّتي ترشِّحُ عن الفلسفةِ اليونانيةِ كونَ الأسماءِ تُعطىٰ من قوةٍ إلهيةٍ[2] وفي العصرِ الوسيطِ آمنَ بعضُ علماءِ الدينِ المسيحيِّ بحرفيةِ ما وردَ في الكتبِ السماويةِ ففي الإنجيلِ نجدُ قولَهُ: ﴿في البَدْءِ كانتِ الكلِمةُ وكانتِ الكلمةُ هيَ اللهُ﴾[3]، وهذا يدعو إلىٰ أنَّ اللُّغةَ وحيٌ من السماءِ، وأنَّ منشأَها توقيفيٌّ من عندِ الله، وأخذَ هذا الاتجاهُ مجالَه في العصرِ الحديثِ علىٰ «دي بونالد» الذي يرىٰ «أنَّ اللُّغةَ ليستْ تواطؤيةً من خلقِ الإرادةِ البشريةِ، والناسُ لم يتفقوا فيما بينهم علىٰ أنْ تكونَ ثمةَ لغةً فكأنَّ هناكَ لغةً سابقةً، هذا التفكيرُ السكونيُّ لمنشأِ اللُّغةِ بعيدٌ كلَّ البعدِ عن واقعِ الحقيقةِ، لأنَّ الإنسانَ لا يقدرُ علىٰ خلقِ شيءٍ ما لم يكنْ لديه فكرةٌ صريحةٌ عنه، ولكي يحصلَ علىٰ هذهِ الفكرةِ الصريحةِ ينبغي له أنْ يعبّرَ عنها. إذاً اللُّغةُ واجبُ وجودٍ لمنشأِ اللُّغةِ ذاتِها، مما يفيدُ أنَّ اللُّغةَ ليستْ من عملِ القوىٰ البشريةِ، إنما هبةٌ من لدُن الله»[4]، وإلىٰ جانبِ دي بونالد نجد «أرنلديز» يسيرُ في الاتجاهِ نفسِه كونَ اللُّغةِ إبداعاً إلهياً يقولُ: «والقضيةُ هنا ليستْ قضيةَ الكلامِ، ولكنَّ القضيةَ قضيةُ تكوينٍ أو خلقٍ، أو تعليمِ الكلامِ، فالفاعلُ يجبُ إذاً أنْ تكونَ لهُ الأسبقيةُ بالنسبةِ للفعلِ، ولكنَّ الإنسانَ

١.الأساس في فقه اللغة:٥٣.
٢. يُنظر في فلسفة اللغة:١٨.
٣.الإنجيل: ف:٢، الآية (٢٠).
٤.في فلسفة اللغة:٢١-٢٦.

لا يمكنُ أنْ يعيشَ بدونِ لغةٍ قبلَ أنْ وجدَ هذهِ الُّلغَةَ، إذاً فالإنسانُ ليسَ الفاعلَ، وبما أنهُ كائنٌ ولا يمكنُ أنْ ينتجَ خلقاً إلهياً، إذنْ يكونُ إلهٌ هو الذي أبدعَ الُّلغَةَ وعلَّمَها للإنسانِ»[1]

أمّا في العصرِ الوسيطِ لاسيَّما في الثقافةِ العربيةِ الإسلاميةِ، نجدُ أعلامَ الفكرِ الإسلاميِّ قالوا بالتوقيفِ، إذ لابدَّ من التوقيفِ في أصلِ الُّلغَةِ الواحدةِ لاستحالةِ وقوعِ الاصطلاحِ على اللغاتِ من غيرِ معرفةِ المصطلحينِ بعينِ ما اصطلحوا عليه[2]، ومن هنا ذهبَ مفكرو العربِ إلى القولِ بالتوقيفِ معتمدينَ على أدلةٍ نقليةٍ متمثلةٍ بالقرآنِ ﴿وَعَلَّمَ آَدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾[3]، وهذ النصُّ القرآنيُّ الذي يفصحُ عن كيفيةِ الإلهامِ وردَ عينُه في الإنجيلِ بقولِه: ﴿فَدَعَا آدَمُ جَميعَ البَهَائِم وطيرَ السماءِ وجميعَ وحشِ الصحراءِ﴾[4]، والنظرُ في تلكَ النصوصِ المقدسةِ لا يقطعُ الطريقَ أمامَ مُنكري هذهِ النَّظريَّةِ فضلاً عن القائلينَ بالمواضعةِ أو المناسبةِ الطبيعيةِ، كونَها لا تدلُّ دلالةً قاطعةً على معنىً ومفهومِ الإلهامِ لأنَّ للنصِّ القرآنيِّ في أعلى تتمةٍ تتمثلُ بقولِه تعالى: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ لم يقلْ سبحانَه«ثُمَّ عَرَضَهَا» نعني بذلك عودةَ الضميرِ على الأسماءِ» فضلاً عن ذلكَ العرضِ يعني المعاينةَ للأشياءِ وهذا لا ينسجمُ مع مدلولِ الآيةِ، ثمَّ قال سبحانَه: ﴿فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾ واسمُ الإشارةِ هذا يدلُّ على جماعةٍ من العقلاءِ، وإنكارُ الملائكةِ لهم دليلٌ على أنّه سبحانَه وتعالى لايعني بتعليمِ آَدَمَ «عليه السلام» أسماءَ المخلوقاتِ أو أنّه تعالى عرضَها على آَدَمَ «عليه السلام» ليدعوَها بأسمائِها، لأننا في هذا المقامِ نتحدثُ عن أوليةِ الُّلغَةِ ونجعلُ بدايتَها معَ هذا النصِّ لاسيَّما لفظةُ «أَسْمَاءَ»، ولم نلتفتْ إلى أنَّ الأمرَ سابقٌ لذلكَ كونَ الحديثِ أو«الحوارِ» قدر جرىٰ ابتداءً مع الله تعالى وملائكتِه وكانوا مدركينَ لحقيقةِ هذا الُّلغَةِ وهذا الخلقُ «الخليفةُ في الأرضِ» الَذي يفسدُ ويسفكُ، وهذا دليلٌ على أنَّ الملائكةَ يعرفونَ معنىٰ

---

1. amaldz: grammaire et the oiogie chez ipn hazm p:43-44

٢.يُنظر فلسفة اللغة:٢١.

٣. سورة البقرة:٣١.

٤.الإنجيل: ف-٢، الآية (٢٠).

ودلالـةَ القتـلِ والسَّـفكِ والفسـادِ ويعرفـونَ دلالـةَ الحمـدِ والتَّسـبيحِ و التقـديسِ ويعرفونَ دلالةَ العلمِ من غيرِه، وهذهِ الطَّائفةُ من الكلماتِ هـيَ مـن مجمـلِ الأسـماءِ الَّتي عُرِضَتْ على الملائكةِ ولم يعرفوهـا عـلى رأيِ مَـن يعتقـدُ بأنّـه علَّـمَ آدمَ «عليه السلام» الأشياءَ كلَّها!.

وإلى جانبِ ذلكَ نجدُ الدكتورَ هادي نهر قـد بـينَ وجهـةَ نظـرِه في هـذهِ النَّظريَّـةِ بطرحِ جملةٍ من المآخذِ عليها، كونَها تنطلقُ في البحثِ عن أوليةِ الُّلغَةِ، وتنازعُ الجـنسَ البشريَّ في ادّعاءِ شرفِ النَّشأةِ الأولى للغتِه، فضلاً عن أنَّ هذهِ النَّظريَّةَ تغفلُ المشكلةَ الرئيسةَ وهيَ البحثُ عن العواملِ الَّتـي دعـتْ إلى ظهـورِ الُّلغَـةِ في صـورِ أصـواتٍ مركبةٍ ذاتِ مقاطعَ متميزةٍ، والكشفُ عـن الصـورةِ الاولى الَّتـي ظهـرتْ بهـا تلـكَ الأصواتُ، فضلاً عن الأسلوبِ، والأسبابِ الموجبةِ له دونَ غيرِه[1].

نحن لا ننكرُ أنَّ الُّلغَةَ من عندِ الله لكنّنا لا نعتقدُ بأنّهـا توقيـفٌ ووحـيٌ لأنّهـا لـو كانت كذلكَ فما هو السبيلُ إلى تحديدِ اللغاتِ الأخرى هـل هـي توقيـفٌ و وحـيٌ؟ والقولُ إنَّ «اللهَ تعالى علَّمَ آدمَ «عليه السلام» أسماءَ جميعِ المخلوقاتِ بجميعِ اللغاتِ العربيـةِ والفارسيةِ والسريانيةِ والعبرانيةِ والروميةِ وغيرِ ذلكَ من سـائرِ اللغـاتِ، فكـانَ آدمُ وولدُه يتكلمونَ بها ثم تفرّقوا في الدنيا وعِلقَ كلٌّ منهم بلغةٍ من تلكَ اللغاتِ فغلبتْ عليه واضمحلَّ عنه ما سواها»؟[2] وهل الأمرُ منوطٌ بالنصوصِ المقدسةِ الَّتي تمثلـتْ بخليقةِ آدمَ «عليه السلام»؟وهل الأسماءُ الَّتي أنبأَ عنها آدمُ «عليه السلام» بجميعِ اللغـاتِ في المقـامِ نفسِه؟.

ثمَّ من هـم ولـدُ آدمَ «عليه السلام» الـذينَ اكتسـبوا تللـكَ اللغـاتِ؟ القـرآنُ والكتـبُ السماويةُ أشارتْ إلى وَلَدَيْ آدمَ «عليه السلام» وهما قابيلُ وهابيلُ، وقُتلَ هابيلُ على يد أخيـه قابيلَ «وهذهِ القصةُ معروفةٌ عند جميـعِ الأمـمِ»، ومـن العقـلِ والمنطـقِ أنْ يكتسـبَ

١.يُنظر الأساس في فقه اللغة العربية وأرومتها:٤٧-٤٨.
٢.الخصائص:١-٩٤

الأبناءُ لغةَ الأبِ، ومن المنطقِ للابنِ أنْ يعلقَ بلغةِ أبيه، وإنْ قبلْنا جدلاً بوجودِ أكثرِ من أخٍ لقابيلَ، فلم تذكرِ الرواياتُ أو كتبُ الأساطيرِ تفرّقهم في الأرضِ أولاً، ومهما كثُر عددُهم فإنهم قد اكتسبوا لغةَ الأبِ ثانياً. والذي نعلمُه أنَّ أولادَ نوحٍ «عليه السلام» هم من تفرّقوا وكلٌّ أصابَ لغتَه بعدَ الطوفانِ! وهذا فيه نظرٌ، لا أنَّ اللهَ تعالىٰ يقولُ ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ البقرة/ ٢١٣.

ينقلُ لنا ابنُ جني تأويلَه لقولِ أبي عليٍّ الفارسيِّ الذي يرىٰ بأنَّ اللُّغةَ هي من عندِ الله، وأنَّه تعالىٰ «أقدرَ آدمَ علىٰ أنْ واضعَ عليها، وهذا المعنىٰ من عندِ اللهِ سبحانَه لا محالَة»[1].

ويرىٰ ابنُ فارسٍ «أنَّ اللهَ تعالىٰ «علَّمَ بعد آدمَ «عليه السلام» من الأعرابِ الأنبياءِ «عليهم السلام» نبياً نبياً ما شاءَ اللهُ أنْ يعلِّمَه، حتىٰ انتهىٰ الأمرُ إلىٰ نبيِّنا محمدٍ «صلى الله عليه وآله وسلم» فآتاهُ اللهُ «ﷻ» من ذلكَ مالمْ يؤتِهِ أحداً قبلَهُ تماماً علىٰ ما أحسنَهُ من اللُّغةِ المتقدمةِ ثم قرَّ الأمرُ قرارَه»[2]، وسنستثمرُ تلكَ المقولاتِ والرواياتِ فيما يأتي من الدراسةِ بعد عرضِنا لجملةٍ من النظرياتِ الَّتي عنيتْ بنشأةِ اللُّغةِ.

وذهبَ بعضُ العلماءِ إلىٰ أنَّ اللُّغةَ محاكاةٌ لأصواتِ الطبيعةِ، أو القولِ بالتكوينِ التدريجيِّ للغةِ، والذينَ ذهبوا في هذا الاتجاهِ، رفضُوا أنْ تكونَ الأسماءُ وليدةَ الاتفاقِ العابثِ وهذا متأتٍّ من التواطؤيةِ، وكذلكَ رفضُهم للتوقيفيةِ، رغبةً منهم في إيجادِ قاعدةٍ إيجابيةٍ لبحثِ اللُّغةِ كعلمٍ صحيحٍ، وهذا يتطلبُ نهجاً استقرائياً قبلياً بنظرياتٍ ذاتيةٍ[3]، ويرىٰ أصحابُ هذهِ النَّظريَّةِ أنَّ اللُّغةَ نشأتْ من الإشاراتِ الطبيعيةِ المقصودةِ، ثمَّ من تقليدِ أصواتِ الطبيعةِ أي «من الأصواتِ المسموعاتِ كدويِّ الريحِ، وحنينِ الرعدِ، وخريرِ الماءِ، وشحيجِ الحمارِ، ونعيقِ الغرابِ، ونحوِ ذلكَ، ثمَّ

١.الخصائص:١-٩٤
٢.الصاحبي:٣٣
٣.يُنظر فلسفة اللغة:٢٧.

وُلِدَتْ اللغاتُ عن ذلكَ فيما بعدُ»[1].

وقيلَ إنَّ الإنسانَ في بادئِ الأمرِ كانَ مقلِّداً ومحاكياً للأشياءِ، ومستعيناً في بعضِ ضروبِ القولِ بالإشارةِ للإبلاغِ عمّا في نفسِه وإيصالِ ما يريدُ إيصالَه للآخرِ[2]، ويرىٰ الفارابيُّ «أنَّ الإنسانَ إذا احتاجَ أنْ يعرفَ غيرُه ممّا في ضميرِه أو مقصودة بضميرِه، استعملَ الإشاراتِ أولاً في الدلالةِ علىٰ ما كانَ يريدُ ممّن يلتمسُ تفهيمَه إذا كانَ ممّن يلتمسُ تفهيمَه بحيثُ يُبصرُ إشاراتِه، ثم استعملَ بعدَ ذلكَ التصويتِ»[3]، وبنموِّ اللُّغَةِ نمتْ وتطورتْ آلياتُ الفهمِ لدىٰ الإنسانِ حتىٰ تخلّىٰ عن بعضِها كونَها لا تتناسبُ و رقيَّهُ العقليَّ والحضاريَّ، و وجدْنا هذهِ النَّظريَّةَ «محاكاةً لأصواتِ الطبيعةِ» مقبولةً عند ابنِ جني ويراها وجهاً صالحاً، ومذهباً متقبَّلاً[4]. وإنَّ القولَ بالمحاكاةِ ينسجمُ و المراحلَ أو الأطوارَ الثلاثةَ الَّتي مرتْ بها اللغاتُ جميعُها المرتقيةُ وهي القابلةُ للتصريفِ وللاشتقاقِ، وغيرُ المرتقيةِ وهي اللغاتُ الَّتي تكونُ أدنىٰ بياناً وأبسطَ ألفاظاً[5].

وقد نُقضتْ هذهِ النَّظريَّةُ، كونَ الطبيعةِ لا تفعلُ إلاّ فعلاً واحداً لا أفعالاً مختلفةً، وإنَّ تأليفَ الكلامِ اختياريٌّ متصرِّفٌ في وجوهٍ شتىٰ[6]، فضلاً عن أنَّ الذينَ قالوا بها من العربِ المسلمينَ لم يلتفتوا إلىٰ طبيعةِ تلكَ المخلوقاتِ كونَها أمماً مثلَنا وحالُها كحالِنا، كلٌّ يسبِّحُ لله وإنْ كُنّا لا نعلمُ تسبيحَهم. فكيفَ لنا أنْ نقلِّدَ أصواتَ الحيواناتِ والجماداتِ؟.

وينقلُ لنا إبراهيم أنيس أنَّ من الباحثينَ مَن هو آخذٌ بنظريةِ داروين في تطورِ الكائناتِ الحيةِ، وعلىٰ ذلكَ تكونُ اللُّغَةُ قد نشأتْ عن الانفعالاتِ والغرائزِ أو ما

١.الخصائص:١-٩٩

٢.يُنظر في فقه اللغة العربية:٢٩

٣.كتاب الحروف للفارابي، تح: محسن مهدي:١٣٥، بيروت، ١٩٧٠م.

٤. يُنظر الخصائص:١-٩٩

٥.يُنظر الأساس في فقه اللغة:٥٩، وسنأتي على هذا الموضوع وبيانه بعد عرضنا لتلك النظريات اللغوية

٦.يُنظر الإحكام في أصول الأحكام:١-٢٩.

يعتري الإنسانَ من حالاتٍ شعوريةٍ كالفرحِ والحزنِ[1]، ومن أشهرِ مَن ذهبَ هذا المذهبَ «ماكس مولر، وريتان» وقيل إنَّ «الغريزةَ تحملُ كلَّ فردٍ على التعبيرِ عن كلِّ مدرَكٍ حسيٍّ أو معنويٍّ بكلمةٍ خاصةٍ به، كما أنَّ الغريزةَ هي التعبيرُ الطبيعيُّ عن الانفعالاتِ الَّتي تحملُ الإنسانَ على القيامِ بحركاتٍ وأصواتٍ خاصةٍ، وأنَّها كانتْ متّحدةً عندَ جميعِ الأفرادِ في طبيعتِها ووظائفِها وما يصدرُ عنها، وأنَّه بفضلِ ذلكَ اتّحدتِ المفرداتُ وتشابهتْ طرقُ التعبيرِ عندَ الجماعاتِ الإنسانيةِ الأولى واستطاعَ الأفرادُ التفاهمَ فيما بينهم، وأنَّه بعدَ نشأةِ الُّلغَةِ الإنسانيةِ الأولى لم يستخدمِ الإنسانُ هذهِ الغريزةَ فأخذتْ تنقرضُ شيئاً فشيئاً»[2].

ويرى الشيخُ عبدُالله العلايلي أنَّ هذهِ الاختلافاتِ في أوليةِ الُّلغَةِ «في أساسِه وجوهرِه لا يُرادُ منه الُّلغَةُ، وإنما غايةٌ كلاميةٌ بحتةٌ، ولذا لا تكادُ تسقطُ على مبحثٍ من الطرازِ عندَ اللغويينَ القدماءِ، وإنما سرى، أو عدا بسريانِه إلى اللغويينَ الذينَ نشأوا بعد استشراءِ الخلافِ الكلاميِّ الذي كانتْ هذهِ إحدى مسائلِه»[3].

وهذا ما نلحظُه عند القدماءِ من اللغويينَ لاسيَّما ابنُ جني الذي ظلَّ متردِّداً في ترجيحِه لتلكَ النظرياتِ وأيُّها أقربُ إلى الواقعِ اللغويِّ، والسببُ في ذلكَ، أنَّه لم تنتهِ إليه موضوعةُ أوليةِ الُّلغَةِ من شيوخِه، ولم نلحظْ عندَ الرعيلِ الأولِ من علمائِنا كأبي عمروِ بنِ العلاءِ والخليلِ بنِ أحمدَ وسيبويهَ والكسائيِّ وغيرِهم من القدماءِ أيَّ جهدٍ أو بحثٍ يعنى بتاريخِ الُّلغَةِ وأوليتِها. قالَ ابنُ جني: «واعلمْ فيما بعدُ، أنّني على تقادمِ الوقتِ، دائمُ التنقيرِ والبحثِ عن هذا الموضعِ، فأجدُ الدواعيَ والخوالجَ قويةَ التجاذبِ لي، مختلفةَ جهاتِ التغوُّلِ على فكري، «أي مشتبهةٌ ومتناكرةٌ» وذلكَ أنّني تأملتُ حالَ هذهِ الُّلغَةِ الشريفةِ، الكريمةِ اللطيفةِ، وجدتُ فيها من الحكمةِ والدقةِ، والإرهافِ، والرقةِ، ما يملكُ عليَّ جانبَ الفكرِ، حتى يكادُ يطمحُ بهِ أمامَ غلوةِ

١.يُنظر دلالة الالفاظ:١٩

٢.نشأة اللغة عند الإنسان والطفل، د. علي عبد الواحد:٣٤.

٣.مقدمة لدرس لغة العرب:١٨٩

السحرِ، فمن ذلكَ ما نبَّه عليه أصحابُنا رحمَهم اللهُ، ومنه ما حذوتُه على أمثلتِهم، فعرفتُ بتتابعِه وانقيادِه، وبُعدِ مراميه وآمادِه، صحةَ ما وفّقوا لتقديمِه منه. ولطفَ ما أُسعدوا به وفُرِقَ لهم عنه، وانضافَ إلى ذلكَ واردُ الأخبارِ المأثورة بأنها من عندِ اللهِ جلَّ وعزَّ، فقويَ في نفسي اعتقادُ كونِها توفيقاً من اللهِ سبحانَه وأنّها وحيٌ.

ثمَّ أقولُ في ضدِّ هذا: كما وقعَ لأصحابِنا ولنا، وتنبَّهوا وتنبَّهنا، على تأمُّلِ هذهِ الحكمةِ الرائعةِ الباهرةِ، كذلكَ لا ننكرُ أنْ يكونَ اللهُ تعالى قد خلقَ من قبلِنا_ وإنْ بَعُدَ مداهُ عنّا_ مَن كانَ ألطفُ منّا أذهاناً، وأسرعُ خواطرَ وأجرأُ جَناناً. فأقفُ بين الخلّتينِ حسيراً، وأكاثرُهما فأنكفئُ مكثوراً، وإنْ خطرَ خاطرٌ فيما بعدُ، يعلقُ الكفُّ بإحدى الجهتينِ، ويكفُّها عن صاحبتِها، قلْنا به، وبالله التوفيقُ»[1]، نلحظُ من خلالِ هذا النصِّ أنَّ ابنَ جنّي وأصحابَه الذينَ وقعَ لهم مثلُ الذي وقعَ لهُ من أمرِ هذهِ اللُّغَةِ قد تردَّدَ بين الإلهامِ والمواضَعةِ وما يراهُ «من المحاكاةِ» وجهاً صالحاً، ومذهباً متقبلاً[2]، لذلكَ حاولَ أنْ يزاوجَ بين فِعْلَيِّ التوقيفِ والمواضعةِ تاركاً أمرَ المحاكاةِ بعدما قبلَه، كونَ الإنسانِ مولوداً على الفطرةِ، وهذهِ الفطرةُ أو الغريزةُ متناميةٌ شأنُها في ذلك شأنُ اللُّغَةِ، فبدايتُها توقيفٌ حتى وصلتْ في المجتمعاتِ البدائيةِ إلى منتهاها نتيجةَ الغرائزِ المتوافقةِ ابتداءً، ثم إعادةُ نموِّها من خلالِ مُواضَعاتِ العامةِ بعدما استوتْ عندهم المَلَكةُ اللغويةُ. لكنْ ما هي وسيلةُ المتواضعينَ في التفاهمِ والاصطلاحِ بينهم ليقفوا على ألفاظٍ ذاتِ دلالةٍ ومعنى؟ لأنَّ القولَ بالتفاهمِ يكونُ مبنياً على لغةٍ موجودةٍ من قبلُ.

١.الخصائص:١-٩٩

٢. يُنظر الخصائص:١-٩٩

على الرغم من أنَّ النظرياتِ الَّتي عُرضتْ في أعلاه، ظلّتْ من الموضوعاتِ المبهمةِ كونَها لا ترتكنُ إلى واقعٍ لغويٍّ، وانطلقتْ من الحدسِ وانتهتْ إلى التخمينِ، لذا جيءَ بنظرياتٍ تعرَّضتْ لمسائلِ اللُّغَةِ من ناحيةِ قواعدِها الصوتيةِ والصرفيةِ، والبحثِ في المراحلِ الَّتي عُرفَ فيها الاسمُ من الفعلِ والحرفِ، فضلاً عن بيانِ حالِ المفردةِ وأيُّها أسبقُ في الوجودِ بحسب معانيها ودلالاتِها العامةِ والخاصةِ[1].

والذي يعنينا من بينِ تلكَ النظرياتِ القولُ باللغاتِ المرتقيةِ، كونَ اللغاتِ جميعاً مرتْ في تلكَ المراحلِ أو الأطوارِ من حيثُ نظامِها اللغويِّ الذي تشكلتْ منه، أي أنَّ هذه الأطوارَ مجتمعةٌ أو كون أولِها أسهمَ في رقيِّ ثانيها، وهكذا إلى الطورِ الثالثِ، هي عمادُ الثروةِ اللغويةِ.

فاللغاتُ ذاتُ المقطعِ البسيطِ تمثلُ الطورَ الأولَ، كونَها تعتمدُ على أدنى المقاطعِ الصوتيةِ نحوَ«ها»، وقيلَ إنَّ هذا الطورَ في غايتِه ولّدَ المقاطعَ الواحديةَ المجموعةَ في حرفِ الهجاءِ، أي ولّدَ الجدولَ الهجائيَّ، فمثَّلَ لذلكَ بـ«عو» قيلَ يدلُّ على الحيواناتِ الزئيريةِ، و«وا» يدلُّ على الصوتِ المتكرِّرِ بحركةِ الفكَّينِ، وعنه نشأَ في العبريةِ «وو» بمعنى «وصلَ»[2].

وهذا الطورُ يمثِّلُ الأصواتَ غيرَ المشكَّلةِ أي الَّتي لم تنطبعْ بطابعٍ خاصٍّ يميزُها بل كانتْ تُقالُ اضطراراً أي الأصواتُ الَّتي تتولّدُ نتيجةَ الانفعالاتِ، كأصواتِ المتوجعينَ، والمغمومينَ، والصوتِ الحاصلِ من تردُّدِ الزفيرِ هماً أو حزناً، إذ أنَّ هذهِ

1. يُنظر تفصيل تلك النظريات في: تهذيب المقدمة اللغوية للشيخ عبدالله العلايلي:٤٤-٤٥، ونشأة اللغة، د. علي عبد الواحد:٤٩-٥٨، واللسان والإنسان د. حسن ظاظا:١٥١-١٥٣.
2. يُنظر مقدمة لدرس لغة العرب:١٩١

الأصواتَ لا تتميزُ فيها المقاطعُ[1].

ويرىٰ الشيخُ العلايلي أنَّ هذا الطورَ «قد امتدَّ كثيراً وعاصرَ الإنسان أطوالَ العمرِ في حلقاتٍ لا سبيلَ إلىٰ تمييزِها علىٰ وجهِ الدقةِ والوضوحِ»[2].

والملاحظُ علىٰ هذهِ الأصواتِ في هذا الطورِ أنها هي من كوّنتْ أو شكّلتْ اللُّغَةَ الفطريةَ الَّتي توصّلَ إليها الإنسانُ بالمصادفةِ والمحاكاةِ والتقليدِ، وهذا يعني أنَّ لكلِّ صوتٍ معنىٰ ودلالةٌ، ومثالُ ذلكَ كلمةُ «شجرٍ» الَّتي تُحلُّ إلىٰ «ش» ومعناهُ سِنٌّ وهو ينظرُ إلىٰ مُطلقِ النباتِ، و«ج» ومعناه جملٌ وهو ينظرُ إلىٰ مُطلَقِ الارتفاعِ، و«ر» ومعناه رأسٌ. والمعنىٰ المؤلفُ من تلكَ الأصواتِ «نباتٌ و ارتفعَ له رأسٌ»، وهو تمامُ معنىٰ ودلالةِ شجرٍ[3] وكذلكَ كلمةُ «جبلٍ» الَّتي تحلُّ إلىٰ «جـ» ومعناهُ ينظرُ إلىٰ الارتفاعِ، و«ب» ومعناه بيتٌ، و«ل»ومعناهُ الملاصقةُ والمساسُ، والمعنىٰ المؤلَّفُ: بيتٌ مرتفعٌ وكأنَّه ملاصقٌ للسحابِ أو الأرضِ[4]، وهكذا نجدُ الشيخَ العلايلي يبرعُ في تحديدِ دلالةِ تلكَ الأصواتِ أو الحروفِ ذاتِ المعاني الجنسيةِ، ويرىٰ أنَّ اللُّغَةَ العربيةَ قد انفصلتْ عن هذا الطورِ ثنائيةً فثلاثيةً، و يبطلُ المبالغةَ في تقديرِ عملِ النحتِ في الساميّةِ علىٰ الإطلاقِ وخصوصاً في الأدواتِ، لأن هذهِ الأدواتِ كانتْ لها معانٍ أوليةٌ تحجرتْ وبقيتْ علىٰ حالتِها الَّتي انتهتْ إليها، وعلىٰ هذا الأساسِ يمكنُ اعتمادُ الجدولِ الأبجديِّ بمعانيه في تحليلِ الكلماتِ، وردِّها إلىٰ معانيها الأوليةِ[5].

أمّا الطورُ الثَّاني فيُعرَفُ «بذي المقطعينِ»، أي حرفانِ بصوتينِ، وحرفانِ بصوتٍ واحدٍ، وقيلَ هذا الطورُ نشأَ مصادفةً، وبمحاكاةِ الطبيعةِ بمختلفِ أصواتِها، ومن خلالِ هذا الطورِ سعىٰ الإنسانُ إلىٰ التأليفِ من منطقِهِ، فحينما أرادَ التدليلَ علىٰ أنَّ

١.يُنظر المصدر نفسه:١٩٥
٢.المصدر نفسه:١٩٥-١٩٦
٣.يُنظر المصدرنفسه:٢٠١
٤.يُنظر المصدرنفسه:٢٠١
٥.يُنظر المصدر نفسه:٢٠٢

الحيوانَ يعوي، عمدَ إلى حرفِ «ع» ذي الصوتِ المضمومِ «عو» الذي يدلُّ على الحيوانِ المفترسِ، والحرفِ الواو ذي الصوتِ «وا» الذي يدلُّ على الصوتِ المتكرِّرِ بحركةِ الفكَّينِ، فأدغَمَهُما وتوصَّلَ إلى «عووا» بمعنى: حيوانٍ يصوِّتُ أو يُواصلُ التصويتَ[1] ونلحظُ هذا الأمرَ في العربيةِ وخاصةً في الصيغِ المعتلّةِ فهيَ ثنائيةُ الوضعِ مؤلَّفةٌ من مقطعينِ، وبعدما استقرتِ العربيةُ عندَ البناءِ الثلاثيِّ صُحِّحَ هذا الأصلُ.

إنَّ العملَ وفقَ هذا الطورِ لا يعني أنَّ الإنسانَ الفطريَّ كانَ يسعى إلى ذلكَ القصدِ من التأليفِ والتركيبِ، بل انتزعَ تلكَ التراكيبَ الصوتيةَ انتزاعاً من خلالِ ضمِّ المقاطعِ الَّتي يستدعيها التعبيرُ خاصةً إذا كانتْ هذهِ المقاطعُ تدلُّ على معنى شخصيٍّ واحدٍ، ولعلَّ هذهِ النَّظريَّةَ مقبولةٌ إلى حدٍّ ما إذا ما علمْنا أنَّ اللغاتِ الجزريةَ وفي هذا الطورِ لم يكن أصحابُها على درجةٍ من التواصلِ اللغويِّ في المعاملاتِ اليوميةِ، بل كانتْ عمليةُ التواصلِ مقيدةً باستعمالِ صيغةِ الطلبِ أي الأمرُ والنهيُ افعلْ ولا تفعلْ.

ثمَّ يرى الشيخُ العلايلي أنَّ التضعيفَ في الثنائيِّ جيءَ به لطردِ كلمِ العربيةِ على ثلاثةِ أحرفٍ والتحلُّلِ من الصوتيةِ، ومثَّلَ لذلكَ بـ: شحَّ الَّتي بمعنى «بخلَ» ينظرُ إلى «شيحَ» و«شحَّ» بمعنى وسعَ ينظرُ إلى «شَحى»، وقد عُولِجَ هذا الضربُ من المباني بالصقلِ اللغويِّ مما أدّى إلى قلةِ المعل مما سيُشعرُ بأنّه أخذَ بالإماتة[2].

أمّا الطورُ الثالثُ والأخيرُ، فقد كان الإنسانُ قاصداً إليهِ قصداً، لأنه سعى إلى ضمِّ المقاطعِ الصوتيةِ البسيطةِ والمركبةِ ويؤلفُ منها تركيباً ذا دلالةٍ بعينِها، وفي هذا الطورِ استقرتْ بعضُ اللغاتِ لاسيَّما الُّلغَةُ العربيةُ في النظامِ الثلاثيِّ للكلمةِ.

وتميزتِ الُّلغَةُ في هذا الطورِ بأنّها لغةٌ مصطنعةٌ من قِبَلِ الإنسانِ لبيانِ تصوراتِه وأفكارِه ومكنوناتِ نفسِه، فضلاً عن اختراعِه للكتابةِ الَّتي عملتْ على التقليمِ

١.يُنظر مقدمة لدرس لغة العرب:١٩٢
٢.المصدرنفسه:٢٠٩

والتهذيبِ وتقديمِ النماذجِ اللغويةِ للمقارنةِ فضلاً عن دعوتِها للإماتةِ والإيجادِ، والاختزالِ والإطنابِ. و استطاعَ الإنسانُ فيه معرفةَ الألوانِ، على الرغمِ من أنَّ الساميينَ كانوا لا يعرفونَ إلاّ الألوانَ الواضحةَ كالسوادِ والبياضِ. وفي هذا الطورِ اكتسبتِ اللغاتُ التصريفَ لاسيَّما مع الأزمنةِ والضمائرِ والإلحاقِ والإلصاقِ، وتحديدِ بنيةِ الكلمةِ الثلاثيةِ والرباعيةِ، والزيادةِ في المباني، وإقرارِ الأفعالِ على بابِها والمصادرِ والجموعِ، حتى استوتْ على حالِها الَّتي عليها[1].

إنَّ القولَ في مجملِ هذه النظرياتِ الَّتي حاولتْ أنْ تقتربَ من أوليّةِ الُّلغَةِ محلُّهُ التصورُ والاعتقادُ، لأننا لا نسمحُ لأنفسِنا ولو مجردُ تصورٍ أو شبهُ اعتقادٍ بأنَّ الإنسانَ «الخليقةَ أي عامةَ البشرِ» قد ترشّحَ وتشعّبَ عن شخصيةٍ بدائيةٍ جهولةٍ تمثلتْ الُّلغَةُ عندَه بتلكَ الأطوارِ أو الأطوارِ الثلاثةِ!.

فَضْلاً عن ذلكَ أنَّ العملَ وفقَ تلكَ التصوراتِ يفصحُ عن إنسانٍ هو خالقٌ للمعرفةِ، بحيثُ يَعرفُ دلالاتِ الأصواتِ وبالتالي هو خالقٌ للّغةِ! وهذا غيرُ ممكنٍ، لاعتبارينِ الأولِ في مسألةِ خَلقِ الُّلغَةِ لابدَّ من معرفةٍ تسبقُ خلقَ الُّلغَةِ، الثاني التباينِ والاختلافِ بينَ اللغاتِ، أمّا القولُ بضمِّ المقاطعِ كي تصبحَ كلاماً فيفصحُ بأنَّ الناسَ قد أحدثُوا لغةً واحدةً و وقفوا عليها، بها علموا ماهيةَ الأشياءِ وكيفياتِها وحدودِها، فلماذا هذا التشعُّبُ والاختلافُ في اللغاتِ حتى صُنّفتْ إلى مرتقيةٍ وغيرِ مرتقيةٍ؟.

إنَّ النَّظريَّةَ الَّتي قامتْ على تلكَ الأطوارِ مقبولةٌ من جانبِها الكتابيِّ أي التَّأصيلُ لتاريخِ الكتابةِ أو النَّظرُ للرسومِ أو ما يُعرَفُ بالكتابةِ الصوريةِ الَّتي عُثرَ عليها في الكهوفِ والمغاراتِ وبعضِ الأماكنِ الأثريةِ القديمةِ والمقارنةُ بينها وبين النقوشِ الَّتي صاحبتْها وبالتالي فكُّ رموزِها وتحليلُها لغوياً وإعادةُ تشكيلِها من جديدٍ وإخضاعُها لقانونِ التطورِ اللغويِّ، وجعْلُ الأمرِ في سلسلةٍ لغويةٍ لا يمكنُ فرطُ عقدِها.

١.يُنظر تلك الموضوعات في الطور الثالث وحلقاته الخمس من المقدمة لدرس لغة العرب

إنَّ حقيقةَ الأمرِ بعدَ هذا التباينِ في آراءِ القدماءِ والمحدثينَ في تحديدِ الأسسِ الَّتي بُنيتْ عليها أوليةُ الُّلغَةِ، يمكنُنا أنْ نلمسَ لهذهِ الُّلغَةِ بدايةً، مبتعدينَ عن المتناقضاتِ اللغويةِ واختلافاتِها الكبيرةِ.

نقولُ: إنَّ الُّلغَةَ هي المعرفةُ، والبشرُ لا يستطيعُ خلقَ تلكَ المعرفةِ، فلابدَّ من خالقٍ فاعلٍ لها، ولا يمكنُ للغةِ أنْ تتشكَّلَ أصواتُها ومبانيها وتراكيبُها دونَ مصوِّتٍ لهذهِ الأصواتِ، وناطقٍ بتلكَ المباني والكلماتِ، ومعربٍ للمعاني والدلالاتِ. نعم إنَّه الإنسانُ الذي له القدرةُ على فعلِ كلِّ ذلكَ في شتى استعمالاتِه اللغويةِ، ونظراً لما لوجودِ الله تعالى من ارتباطٍ ضروريٍّ بوجودِنا، فإنَّ أفكارَنا الَّتي يمكنُ أنْ نحصلَ عليها عن شيءٍ ما، لن نثبتَ وجودَ هذا الشيءِ، بأكثرَ ما يمكنُ أنْ يثبتَ الإنسانُ نفسَه في الوجودِ، لذلكَ نحنُ نبحثُ عن المعرفةِ بأثباتِ وجودِنا والغايةِ من هذا الوجودِ، ونعتقدُ بوجودِ الأشياءِ وخلقِها، تلكَ الَّتي نراها أو نحسُّها أو هي جزءٌ من كينونتِنا.

خلقُ الُّلغَةِ

إنَّ إشكاليةَ خلقِ الُّلغَةِ من المسائلِ الشَّائكةِ الَّتي تحتاجُ إلى استدلالٍ عقليٍّ وحدسٍ عرفانيٍّ، لأنَّ موضوعَها خفيٌّ، أعمقُ من أنْ يُضرَبَ له المثالُ، لذا يجبُ علينا أنْ نجهدَ الفكرَ ونكدَّه ونردِّدَ النظرَ في معرفةِ الكيفيةِ الَّتي خُلِقَتْ بها الُّلغَةُ، وأنَّ معرفةَ الموجوداتِ بطريقةِ الاستدلالِ العقليِّ لا تعطي كُنهَ المعرفةِ، وإنما تعرّفُ الأشياءَ على حقيقتِها من ابتدائِها وإنشائِها وجمعِ مركباتِها من مفرداتِها وإظهارِ عللِها من معلولِها.

فباتَ من الواضحِ وبعدَ عرضِ جملةٍ من النظرياتِ ندركُ بأنَّ الُّلغَةَ ليستْ من اختراعِ الإنسانِ، ولا هيَ من فعلِ الطبيعةِ، بل هيَ مخلوقةٌ من طرفِ الله تعالى، ونعتقدُ بأنَّ اللهَ تعالى خلقَ الُّلغَةَ معَ المخلوقِ الأولِ وهو موجودٌ واحدٌ خُلِقَ بطريقٍ مباشرٍ خلقَهُ بذاتِه ولذاتِه في بدءِ الخليقةِ، وهذا الموجودُ الأولُ هو جنسُ الملائكةِ،

«وهذا الخلقُ ليس صدوراً ضرورياً بل هو فعلُ إرادةٍ مطلقةٍ تامةٍ لها معرفةٌ وشعورٌ بما تفعلُ وجميعُ المخلوقاتِ ترجعُ إلى الله بالذاتِ»[1]، ولعلَّ اللُّغةَ من الأشياءِ الَّتي خلقَها اللهُ تعالى وهو جوهرٌ بسيطٌ مجردٌ مغايرٌ لهذهِ الأجسامِ والأعراضِ، شأنُها في الخلقِ شأنُ الروحِ، لكنَّها قديمةٌ في الذاتِ الإلهيةِ، حادثةٌ في مخلوقاتِه، كونَها حصلتْ بفعلِ الله تعالى وتكوينِه وإيجادِه، ثم احتيجَ إلى الحدوثِ عند البشرِ لا عندَ الملائكةِ، كونَها تكونُ مصاقِبةً للروحِ فهيَ بسيطةٌ في مبدأِ الفطرةِ ثمَّ تحصلُ فيها المعرفةُ، وما تزالُ في تغيرٍ ونموٍ وتبدلٍ وتلكَ من إماراتِ الحدوثِ.

فمتى تكلَّمَ الإنسانُ بلغتِه؟

الإنسانُ يُمَثِّلُ الطَّورَ الثانيَ من الخلائقِ، بعدَ جنسِ الملائكةِ. والملائكةُ ومن خلالِ النصِّ القرآنيِّ يمتلكونَ مَلَكَةً لغويةً تواصُليةً سواءٌ بينهم وبينَ الله تعالى أو بينهم وبينَ الخاصةِ من البشرِ ألا وهم الأنبياءُ والمرسلون أو ممّن حباهُمَ اللهُ بمنزلةٍ منهُ كقولِه تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾ آل عمران:١٨، و قولِه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَّ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ﴾ آل عمران:٤٢، وقولِه ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَّ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾آل عمران:٤٥، وقولِه ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ النساء:١٦٦، وقولِه: ﴿فَلَمَّا جَاءَ آَلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ * قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ * قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ * وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾، الحجر:٦١_٦٤، وكثيرٌ من هذه النصوصِ الَّتي تُفصحُ عن العمليةِ التواصليةِ بين الملائكةِ وجنسِ البشرِ، فضلاً عن ذلكَ هنالكَ نصوصٌ تواصليةٌ بينَ الله تعالى والملائكةِ لامجالَ لذكرِها فهيَ كثيرٌ وتفصحُ عما نريدُ بيانَه، ثمَّ هنالكَ شيءٌ وجدَ ابتداءً وهو تسميةُ الملائكةِ بأسمائِهم ولو أنَّ النصَّ القرآنيَّ لم يفصحْ لنا عن جميعِ تلكَ الأسماءِ، فإنَّ الأسماءَ هذهِ هيَ من عندِ اللهِ تعالى وكلٌّ يدلُّ على مُسَمَّاهُ وهذهِ الأسماءُ

١.يُنظر أبو البركات البغدادي وفلسفة الإلهية:١١٤.

أطلقتْ على الملائكةِ من قِبلِه تعالى، بعدَ الاستواءِ على العرشِ وخلقِ السماواتِ والأرضِ، وأخذَ الملائكةُ يسبّحونَ ويهلّلونَ تحتَ العرشِ ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ الزمر:٧٥، فاكتسبوا ما اكتسبوا من لغةٍ عباديةٍ من عندِ اللهِ تعالى في باديءِ الأمرِ.

ثمَّ خلقَ اللهُ الإنسانَ فأحسنَ خلقَه «أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ البلد:٩، وقالَ تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ التغابن:٣.

إذن ما هي الحكمةُ من خلْقِ الإنسانِ؟ الجوابُ حاضرٌ من عندِه تعالى قالَ ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ الذاريات:٥٦، وقالَ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ البقرة:٢١ ثم تكرّرَ هذا المطلبُ على جميع الأنبياءِ والرسلِ، وإليكَ جملةً من الآياتِ في هذا المعنى:

قالَ تعالى:

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ النحل:٣٦

﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ نوح::٢-٣

﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ الاعراف:٦٥

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ هود:٦١

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ النحل:١٢٠

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ الشعراء:١٦١-١٦٣

﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا

وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ العنكبوت:٣٦

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الاعراف:١٠٤

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يونس:٨٧

أذن هي العبادةُ لله سبحانَه وتعالىٰ الَّتي خُلقَ الإنسانُ من أجلِها، فكيفَ للإنسانِ أنْ يؤديَ طقوسَ هذهِ العبادةِ؟ قالَ اللهُ تعالىٰ:﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ البقرة:٣٧، في هذا المقامِ دعا آدمُ ربَّه ليغفرَ لهُ سيئتَه وطلبَ التوبةَ والمغفرةَ، وهذا الأمرُ كانَ عن طريقِ التوجُّهِ بالدعاءِ والتوسُّل لله سبحانَه وتعالىٰ، أي ثمةَ عمليةٌ لغويةٌ تواصليةٌ بينَ العبدِ وخالقِه﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾طه:١٢٢.

إذن العبادةُ ممارسةُ عمليةٍ عقليةٍ وروحيةٍ وجسديةٍ تتجلّىٰ من خلالِها عظمةُ الخالقِ و وحدانيتُه، وأساسُ ذلكَ وعمادُه الإقرارُ قولاً بـ لا إله إلاّ اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لـهُ، ومن ثمَّ تأتي الأفعالُ العباديةُ.

فاللُّغةُ مخلوقةٌ قبلَ خلقِ الإنسانِ، لأنّها مستعملةٌ عندَ الله تعالىٰ جدُّه وملائكتِه قبلَ خلقِه للإنسانِ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ الرحمن:٣ واللهُ سبحانَه حينما خلقَ الإنسانَ خلقَ له آلةَ اللُّغةِ وهي «اللسانُ»، كما خلقَ الجسدَ آلةً للروحِ، فاللُّغةُ وُجِدتْ قبلَ وجودِه لأنَّ النصَّ القرآنيَّ أعربَ عن ذلكَ من خلالِ وصفِ الله لخلقِ السماواتِ والأرضِ وبيَّنَ لنا طبيعةَ ذلكَ من خلالِ استعمالِه سبحانه وتعالىٰ لمفرداتِ هذهِ للغةِ، قالَ تعالىٰ:﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ الأنبياء:٣٠، ثمَّ نجدُه سبحانه استعملَ العددَ في بيانِ مدةِ الخلقِ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ السجدة:٤، وقوله تعالىٰ: «الذي خلقَ سبعَ سماواتٍ طِباقاً» الملك:٣، وهذه الأمورُ قد حدثتِ

ابتداءً وقبلَ كلِّ شيءٍ، ثمَّ استعملتِ اللُّغَةُ بين الله سبحانه وتعالىٰ وملائكتِه قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ البقرة:٣٠، و قالَ تعالىٰ: ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدمَ﴾ الكهف:١٨، وقول إبليسَ عليه اللعنةُ: ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ الإسراء:٦١، ثمَّ قالَ: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ الإسراء:٦٢. تلحظ أنَّ اللُّغَةَ مخلوقةٌ ومستعملةٌ قبلَ خلقِ الإنسانِ، فخلقَ الإنسانَ وبُثَّتْ في داخلِه تلكَ اللُّغَةُ كأنّها الروحُ الّتي بين جنبَيه، قالَ تعالىٰ: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ ص:٧٢. لأنه بعدَ ذلكَ عقلَ أسماءَ الأشياءِ وحدَّثَ الملائكةَ وأخبرَهم بأسماءِ من جِهلوه، ثمَّ كانتْ لهُ محاوراتُه مع إبليسَ في الجنةِ وعن الملكِ الذي لا يفنىٰ، فهذه الأشياءُ نراها دلائلَ علىٰ مخلوقيةِ اللُّغَةِ فريثما خرجتِ الروحُ خرجتِ اللُّغَةُ من الإنسانِ، إلاّ أنها ظلتْ مصاقبةً للروحِ ووجهُ الاستدلالِ في ذلكَ ما رُويَ عن رسولِ الله صلىٰ اللهُ عليهِ وآلِه وسلمَ بـ«أنَّ حالَ كونِ الجسدِ محمولاً علىٰ النعشِ بقيَ هناكَ شَيءٌ ينادي ويقولُ: يا أهلي و يا ولدي جمعتُ المالَ من حِلِّه وغيرِ حِلِّه» وهذا تصريحٌ بأنَّ في الوقتِ الذي كان الجسدُ ميتاً محمولاً علىٰ النعشِ كان ذلكَ الإنسانُ حياً باقياً فاهماً ناطقاً[1].

١.يُنظر: بحار الأنوار: ٥٨-٨ «باب٤٢-حقيقة النفس والروح وأحوالهما».

اللهُ سبحانهُ وتعالى صوّرَ المخلوقاتِ كلَّها في علمِه الأزليِّ بإرادةٍ أزليةٍ قديمـةٍ، ثـمَّ أخرجَها إلى حيزِ الوجودِ بإرادتِه المتجددةِ والمستمرةِ على الـدوام، واللُّغَـةُ مـن قَبيـل تلكَ المخلوقاتِ المتجددةِ والمتحولةِ، وبوصفِها وسيلةَ تفاهمٍ بـينَ النـاسِ كونَهـا أداةَ توصيلِ ما في النفسِ لما استبانتْه عن الأشياءِ الموجوداتِ إلى نفسِ المخاطـبِ بصـوتٍ مفهومٍ مؤلفٍ من حروفٍ مقطعاتٍ هي أساسُ المبـاني والكلـماتِ، ومـن خـلالِ مـا تقدمَ ندركُ بأنَّ اللُّغَةَ هي موجودٌ واحدٌ قديمٌ، ترشحتْ عنه تلـكَ اللغـاتُ المختلفـةُ بفعلِ الخلقِ المستمرِّ، فضلاً عن كونِها آيةً من آياتِ الله تعالى بحيثُ ربطَ بينَ اختلافِ الألسنِ واختلافِ الصورِ، ونحـنُ نعلـمُ بـأنَّ الخلـقَ في تناسـلِه يعـودُ إلى آدمَ عليـهِ السلامُ، وبالمقابلِ فإنَّ هذهِ الألسنَ هي الأخـرى تعـودُ إلى أصـلٍ هـو أتـمُّ اللغـاتِ وأبينُها عبارةً، وأقلها إشكالاً، وأشدُّها اختصاراً، وأكثرُها وقوعُ أسـماءَ مختلفـةٍ عـلى المسمياتِ كلِّها المختلفةِ من كلِّ ما في العالمِ من جوهرٍ أو عَرَضٍ[1]، فمسـألةُ التحـولِ والتشعبِ والتطورِ تتمظهرُ بتنظيمٍ جديدٍ للفعلِ الإلهـيِّ القـديمِ ويكـونُ ذلـكَ عـن طريقِ الملائكةِ، والفعلُ هنا هو التعليمُ والإرشادُ والدعوةُ إلى الابتكـارِ مـعَ الحفـاظِ على جـوهرِ الأصـلِ، وكـلُّ ذلـكَ لا يخـرجُ عـن الإرادةِ الإلهيـةِ، فتشـعُّبُ اللغـاتِ واختلافُ الألسنِ، قد جاءَ في سِفْرِ التكوينِ الأصـحاحِ الحـادي عشرَ- الآيـةِ الأولى قولُه: ﴿وكانَ لأهلِ الأرضِ لغةٌ واحـدةٌ وكـلامٌ واحـدٌ* فلـمّا رحلُـوا مـن المشـرقِ وجدُوا بقعةً في سهلِ شنعارَ، فأقامُوا هناكَ*وقالَ بعضُهم لبعضٍ» تعالُوا نصنعْ لبنـاً ونشويهِ شيّاً «فكانَ لهم اللـبنُ بـدلَ الحجـارةِ والـترابُ الأحمـرُ بـدلَ الطينِ*وقـالوا «تعالوا نبنِ مدينةً وبرجاً رأسُه في السماءِ، ونُقِمْ لنا اسماً فلا نتشتتْ على وجهِ الأرضِ كلِّها»*ونزلَ الربُّ لينظرَ المدينةَ والبرجَ اللذينِ كانَ بنو آدمَ يبنونهما*فقالَ الربُّ: ها

١.يُنظر الإحكام في أصول الأحكام:٣٠.

هم شعبٌ واحدٌ، ولهم جميعاً لغةٌ واحدةٌ! ما هذا الذي عملوه إلاّ بدايةٌ، ولن يصعبَ عليهم شيءٌ مما ينوون أنْ يعملوه!*فلننزلْ ونبلبلْ هناكَ لغتَهم، حتى لا يفهمَ بعضُهم لغةَ بعضٍ﴾[1]، ومضمونُ هذا النصِّ يتّسقُ معَ قولِه تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا﴾ البقرة:٢١٣، وهذا يعني أنَّ الناسَ وفي هذهِ الحالِ كانوا يتواصلونَ بلغةٍ واحدةٍ، ونعتقدُ بأنَّها اللُّغَةُ العربيةُ كونَ القرآنِ جاءَ بهذهِ اللُّغَةِ الَّتي تجلّتْ فيها عظمةُ الخالقِ، ودلَّتْ على ذاتِها بذاتِها من خلالِ النصوصِ القرآنيةِ الَّتي أوردْناها تبياناً لها، فضلاً عن كونِها اللُّغَةَ العروبيةَ الَّتي ما تزالُ مستعملةً إلى يومِنا هذا، لابل ستبقى ما بقيَ الليلُ والنهارُ، وبها وبأصواتِها تقالُ كلمةُ الفصلِ ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨) أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٤٩)﴾ الأعراف/ ٤٨ -٤٩.

١.سفر التكوين الأصحاح الحادي عشر.